المبحث الثاني

المناسبة بين الأفعال والسياق اللغوي

تتعلق مناسبة الأفعال بمبانيها أو صيغها فحسب؛ لأنّ الأفعال ليس لها مواقع وظيفية.

وتنقسم الصيغ الخاصة بالأفعال على قسمين: **أحدهما** يتعلق بصيغة الفعل من حيث دلالتها على الزمن، **والثاني** يتعلق بصيغته من حيث الوزن، وفيما يلي بيان ذلك.

المطلب الأول: صيغ الأفعال من حيث دلالتها على الزمن

يقسم النحاة الأفعال من حيث دلالتها على الزمن إلى ماضٍ ومستقبل وحال[1]. ويقول ابن يعيش: إنّ الفعل هو: «كلّ كلمة تدل على معنى في نفسها مقترنة بزمان»[2].

وقال ابن عصفور: «تنقسم بانقسام الزمان إلى ماضي ومستقبل وحال»[3]. وقال سيبويه: «وأمّا الفعل فأمثلته أخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع. فأما بناء ما مضى فذهب وسمع ومكث وحُمد. وأمّا بناء ما لم يقع فإنّه قولك آمراً: اذهب واقتل واضرب، ومخبراً: (يقتل) ويذهبُ ويضرب ويقتلُ ويُضرَبُ. وكذلك بناء ما لم ينقطع، وهو كائن إذا أخرت، فهذه الأمثلة التي

---

(١) ينظر: شرح جمل الزجاجي: ١٢٧/١.

(٢) شرح المفصل: ٢/٧.

(٣) شرح الجمل: ١٢٧/١.

أخذت من لفظ أحداث الأسماء، ولها أبنية كثيرة»[1].

ولهذا نجد إنّ الماضي والمستقبل لا خلاف فيهما، كما أنّه لا خلاف في زمنهما، فأما الحال ففيه خلاف بين النحويين، فمنهم من أنكره ومنهم من أثبته، أمّا من أنكر زمانه، فحجته أنّه. إمّا قد وقع، وإمّا لم يقع، فإن كان الأول فهو ماض وإن كان الثاني فهو مستقبل، ولا ثالث لهما، ورد ابن عصفور على ذلك بأنّ زمن الحال لقصره يتعذر الإخبار عنه؛ لأنّه الزمن المتوهم الفاصل بين الماضي والمستقبل[2].

وينظر هذا التقسيم إلى بنية الفعل وما تدل عليه من زمن صرفي، قد يختلف عن الزمن النحوي، فبنية الماضي تدل على ما مضى من الزمان، وبنية المضارع تدل على الحال أو المستقبل، ولا يتحدد أحدهما إلاّ بقرينة السياق.

قال د. تمام حسان: «ومعنى إتيان الزمن على المستوى الصرفي من شكل الصيغة أنّ للزمن هنا وظيفة الصيغة المفردة، ومعنى أنّ الزمن يأتي على المستوى النحوي من مجرى السياق أنّ الزمن في النحو وظيفة السياق وليس وظيفة صيغة الفعل، لأنّ الفعل الذي على صيغة فعل قد يدل في السياق على المستقبل، والذي على صيغة المضارع قد يدل فيه على الماضي. فقول النحاة: (والزمن جزء منه) قول مقبول على مستوى الصرف فقط»[3].

ويرى البلاغيون أنّ هذا الزمن في جميع صوره يدل على التجدد، مع اختلاف معناه باختلاف بنية الفعل. قال بهاء الدين السبكي: «الفعل يدل

---

(١) الكتاب: ١٢/١.

(٢) شرح الجمل: ١٢٧/١.

(٣) اللغة العربية معناها ومبناها: ١٠٤.

على التجدد ماضياً كان أم مضارعاً أم أمراً، غير إنّ التجدد الذي يدل عليه الماضي المراد به الحصول، والمضارع يدل على التجدد، بمعنى أنّ من شأنه أنّه يتكرر ويقع مرة بعد مرة أخرى»[1].

ولما كان المضارع يدل على الاستمرار لهذا قال السبكي: «واعلم أنّه يستثنى من قولنا المضارع دال على الاستمرار ما إذا أريد به زمن الحال خاصة، فإنّ الاستمرار مع إرادة زمن الحال فقط لا يجتمعان إلاّ أن يقال: يدل على وقوع الحدث في الحال، وأنّه يستمر في المستقبل»[2].

وقال العلوي: «الفعل المستقبل يوضح الحال، ويستحضر تلك الصورة حتى كأنّ الإنسان يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي إذا عطف؛ لأنّه لا يعطى هذا المعنى، ولا يدل عليه»[3].

ويوضح ابن يعقوب المغربي صيغة المضارع بقوله: «يدل على الحال المشاهد، فقد يستعمل للإشعار بالحضور الذي هو الأصل، وللتنبيه بالعبارة على الشهود، فكأنه يقال عند التعبير به: اشهدوا هذا الأمر الذي نحضره، بالتعبير بما يدل على الحضور وإنّما يفعل ذلك في الأمر الغريب أو الفضيع أو نحو ذلك كاللطيف والعجيب»[4].

هنا الملحظ الدلالي للفعل يضيف إلى سماته عنصراً جديداً على النحو الآتي:

---

(١) عروس الأفراح: ٢/٢٨.

(٢) المصدر السابق: ٢/٢٩.

(٣) الطراز: ٢٦٧-٢٦٨.

(٤) مواهب الفتاح: ٢/٨٨-٨٩.

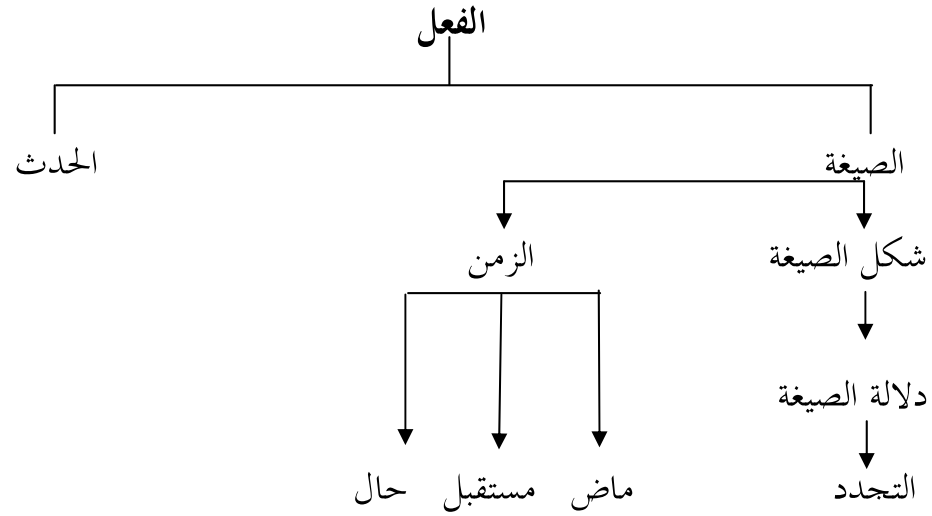

وتبعاً لهذا المفهوم يمكن أن ننظر إلى السمات الصرفية لكلّ من الفعل والاسم في اللغة العربية على النحو الآتي:

الفعل = حدث + زمن + تجدد

الاسم: مسمى + حدث + زمن + تجدد

وبمقتضى هذه الدلالة يمكن أن نتبين علاقة المناسبة بين الأفعال والسياق اللغوي الذي ترد فيه.

ومنها استعمال صيغة المضارع كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]، فجاء التعبير القرآني بلفظ (تكفرون) على صيغة المضارع دون الماضي، فلم يقل: (كيف كفرتم) ليتفق مع سائر الأفعال في الآية[2].

وقد يؤثر التعبير القرآني استعمال بعض هذه المباني في مواضع معينة، على

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

(٢) ينظر: البحر المحيط: ١/٢٧٥.

وفق ما يقتضيه المقام، فيأتي بصيغة الماضي في مواضع، وصيغة المضارع في مواضع أخرى كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[1]، فأتى بالمضارع في هذا الموضع، ثم عدل عنه إلى الماضي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾[2] وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[3].

ولعل هذه المغايرة ترجع إلى أنّ السياق في الآية الأولى يدل على زمن الاستقبال في بعض جوانبه، وهو ما نراه في أسلوب الشرط كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ثم يدل في جانب آخر على زمن الحال، وهو ما يتكشف عنه قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[4].

فناسب هنا الأسلوب القرآني صيغة المضارع الدالة على الحال أو الاستقبال.

قال ابن جماعة: «ولما تقدّم هنا ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وتأخر ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾[5] ناسب من يضل عن سبيله»[6] يقصد هنا أنّ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٧.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٠.

(٣) سورة القلم، الآية: ٧.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١١٩.

(٦) كشف المعاني: ١٦٦.

ما تقدّم على الفعل وما تأخر عنه يدل زمنه على المستقبل والحال[1]. وكذلك قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2].

فجاءت الجملة الأولى في هذه الآية مصدرة بالفعل الماضي (زين) وجاءت الثانية مُصدِّرة بالمضارع (يسخرون) في تنويع بديع بين الصيغ، وعلّة ذلك أنّ تزين الدنيا في عين الكافرين، بل في عين أغلب الناس أمر واقع، لا يتغير، فطرت عليه طبائعهم ونفوسهم، كما قال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[3] فجاءت صيغة الماضي بما توحي به من التحقق موافقة لسياق الحال.

أمّا مجيء المضارع في الثانية فلأنّ السخرية أمر يختلف من وقت لآخر، ليست النفوس مفتورة عليه، يتجدد بتجدد الموقف الذي يقتضيه، وكان الكفرة -كما يذكر الزمخشري-: «يسخرون من المؤمنين الذين لاحظَّ لهم من الدنيا كابن مسعود وعمار وصهيب وغيرهم، أي: لا يريدون غيرها. وهم يسخرون ممن لا حظ له فيها أو ممن يطلب غيرها»[4]. لذا كانت صيغة المضارع هي المناسبة لهذا المعنى، وهذا ما استشرفه أبو حيان بنظراته البلاغية الواعية، إذ يقول: «وصدرت الأولى بالفعل الماضي؛ لأنّه أمر مفروغ منه،

---

(١) ينظر: المناسبة: ٢٤٢-٢٤٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

(٤) الكشاف: ١/٢٥٥.

وهو تركيب طباعهم على محبة الدنيا فليس أمراً متجدداً، وصدرت الثانية بالمضارع؛ لأنّها حالة تتجدد كلّ وقت»[1].

وكذلك ترى التنويع بين الصيغ يأتي كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2] فعبّر عن (الكفر) بصيغة الماضي، وعن (الصد) بصيغة المضارع، يقول الزركشي: «الكفر لما كان من شأنه إذا حصل أن يستمر حكمه عبّر عنه بالماضي؛ ليفيد ذلك مع كونه نافياً أنّه قد مضى عليه زمان، ولا كذلك الصد عن سبيل الله، فإن حكم إنّما يثبت حال حصوله، مع إنّ في الفعل المستقبل إشعاراً بالتكثير، فيشعر قوله: «ويصدون» أنّه في كلّ وقت بصدد ذلك، ولو قال: «وصدوا» لأشعر بانقطاع صدهم»[3].

وكذلك ترى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾[4].

آثر الأسلوب القرآني استعمال بنية المضارع (يقولون) ثم تركه إلى بنية الماضي (قالوا) ونتدبر هذا الانتقال بينهما، بما توحي كلّ منهما من دلالات.

---

(١) البحر المحيط: ١٣٩/٢.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٥.

(٣) البرهان: ٣٣٦/٣-٣٣٧.

(٤) سورة النازعات، الآيات: ٦-١٢.

تقول د. عائشة بنت الشاطئ: يهدي إلى بيان وجه المقول وتحديد الجو الذي قيلت فيه كلّ منهما، والدلالة على الحالة النفسية للقائلين في كلّ من الموقفين، إذ باغتتهم رجفة القيامة بما تبعها من هذه وخشوع، فهم يقولون في دهشة المأخوذ وحيرة من فوجئ بما لم يكن في حسابه قط: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ ولم يكن الموقف بحيث يحتاج إلى أجانبهم عمّا سألوا عنه، وقد قضى الأمر وصار كلّ هذا الذي كذبوا به واقعاً مشهوداً، فلما عاينوا اليقين ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ في حسرة وندم، وفي كلمة (قالوا) من سبر البيان، أنها تأتي حيث يبدو في ظاهر الأمر إمكان الاستغناء عنها بـــ: يقولون: أئنا لمردودون في الحافرة؟ أئذا كنا عظاماً نخرة؟ ولهذا فإنّ المضارعة هنا هي الشيء تلاءم حيرة المأخوذ وعجب المستغرب، كما أنّ المضي في قوله: (قالوا) بعد أن أتاهم اليقين هو الملائم لحالة اليأس من استرجاع ما فات أو استدراك ما مضى والتيقن من الخسران المحقق والمصير المحتوم»[1].

وكذلك استعمال المضارع دون الاسم المشتق ما نراه في لفظ (ينفقون) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

ولم يقل المتقين في غير موضع من القرآن، وعلة ذلك- قال الزركشي: إنّ «حقيقة النفقة أمر فعلي شأنه الانقطاع والتجدد، بخلاف الإيمان فإنّ له حقيقة تقوم بالقلب يدوم مقتضاها، وإن غفل عنها، وكذلك التقوى

(١) ينظر: التفسير البياني: ١/١٣٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٤.

والإسلام، والصبر والشكر، والهدى والضلال، فمعناها، أو معنى وصف الجارحة، كلّ هذه لها مسميات حقيقية أو مجازية تستمر، وآثار تتجدد وتنقطع، فجاءت بالاستعمالين، إلاّ أنّ لكلّ محل ما يليق به، فحيث يراد تجدد حقائقها أو آثارها فالأفعال، وحيث يراد ثبوت الاتصاف بها فالأسماء»[1].

المطلب الثاني: صيغ الأفعال من حيث التجرد والزيادة

إنّ كلّ لفظ يختلف معناه باختلاف ما يطرأ عليه من زيادة، فزيادة المبنى لابد أن يصحبها زيادة في المعنى، وكذلك يختلف ورود الأفعال في القرآن الكريم باختلاف صيغها من حيث التجرد والزيادة تبعاً لمقتضيات السياق. ويختلف أيضاً مدلول بنية الفعل باختلاف ما يطرأ عليها من مورفيمات زائدة، فصيغة (فعل) مثلاً تختلف عن صيغة (أفعل) في معناها، وهما يختلفان وصيغة (فَعَلَ) لها دلالة تختلف عن (أفْعَلَ) أو (فَعَّلَ) أو (فّاعَلَ). كما أنّ المعنى نفسه يختلف باختلاف الحرف الزائدة؛ إذ كلّ حرف له دلالته الخاصة به، وإن اتفقت الصيغ في الأصل، فكلّ صيغة تختلف معناها بقدر ما يضاف إلى البنية من زيادة أو ما يطرأ عليها من تغير. ونجد إنّ النظم القرآني الحكيم بأسلوبه المتفرد يختار لكلّ بنية من هذه المباني المختلفة في المقام الذي يليق بها، ويقتضي معناها الدقيق، فعندما يأتي بصيغة مثل (فعل) المجردة في موضع، ثم يأتي بصيغة (أفعل) الدالة على المعنى نفسه في موضع آخر، لاشك أن يكون لعلة ما[2].

ومن تلك الأوزان المزيدة التي يكثر ورودها في القرآن وزناً (فعَّل) و(افعل)، إذ يأتي عليها في مواضع متشابهة بعض الأفعال ذات الأصل الواحد

---

(١) البرهان: ٦٧/٤.

(٢) ينظر: من الإعجاز اللغوي: ١٧٠؛ المناسبة في القرآن: ٢٤٩.

أو المعنى المشترك، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[1]، فقال هنا: ﴿نَجَّيْنَٰكُم﴾، ثم عدل الأسلوب القرآني عنه إلى الثاني عند الحديث عن الموقف نفسه في موضع آخر، فقال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[2] ويرجع ذلك إلى أنّ التضعيف في صيغة (فعَّل) يدل في الغالب على الكثرة.

قال الرضي: «الأغلب في فعَّل أن يكون لتكثير فاعله أصل الفعل، لما أن الأكثر في أفعل النقل، تقول: ذَبحتُ الشاة، ولا تقول ذبّحتها، وأغلقت الباب مرة، ولا تقول: غَلّقْت، لعدم تصور معنى التكثير في مثله. بل نقول: ذبّحت الغنم، وغلّقت الأبواب، وقولك: جرّحته: إني أكثرت جراحاته»[3].

قال ابن الزبير: «فذكر نجاهم من آل فرعون وفرق البحر بهم ونجاهم وهلاك عدوهم بالغرق، ثم ذكر عفوه عنهم في عبادة العمل وتوبته عليهم، وبعثهم من موتهم عند طلبهم الرؤية، وتظليلهم بالغمام، إلى ما ذكر تعالى بعد هذا، فلما كان موضع تعداد نعم وآلاء ذكروا بها ليزدجروا عن المخالفة والعناد ناسبه التضعيف لإثباته بالكثرة، ولو قيل هنا وإذ أنجيناكم لما أنبأ بذلك

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٩.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٦.

(٣) شرح شافية ابن الحاجب: ٩٢/١.

ولا ناسب المقصود ممّا ذكر»[1].

ونجد السياق في الآية الثانية لم يكن الخطاب فيه من الله مثلما كان في الآية الأولى، بل كان من موسى، وتعداده لنعم الله ليس كتعداد الله نفسه، إذ قد يخفى عليه بعضها، كذلك فإنّ السياق هنا لم يكن فيه من النعم ما عدده الله في سورة البقرة، بل كان فيه ذكر للنعم بجانب النعم، وهو ما يدل عليه قوله تعالى في أمره لموسى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ﴾[2]، وأيامه هنا -كما يفسرها أبو حيان نقلاً عن ابن عباس- نعمه ونقمه[3] لذلك كان من المناسب أن يأتي الأسلوب القرآني هنا بالصيغة التي تخلو من التضعيف حتى تتفق مع خلو السياق من كثرة النعم، فكان العدول إلى (أنجاكم) الذي زيدت فيه الهمزة للدلالة على مجرد النقل والتعدية، وهما من المعاني التي تزاد للدلالة عليها كما يذكر المالقي[4].

ونرى التعبير القرآني يسخر الزيادة في بنية أخرى، لتوليد دلالات تتفق وسياق الحال، وهي صيغة (افتعل) يقول الرضي فيها: إنّها تدل في بعض معانيها على: «الاجتهاد والاضطراب في تحصيل أصل الفعل، فمعنى (كَسَبَ) أصاب، ومعنى (اكتسب) اجتهد في تحصيل الإصابة بأن زاول أسبابها»[5].

ويأتي لفظ (اصطبر) فيها بصيغة الأمر كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ

---

(١) ملاك التأويل: ١/١٩٩.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٥.

(٣) البحر المحيط: ٥/٣٩٥.

(٤) رصف المباني: ٥٠.

(٥) شرح شافية ابن الحاجب: ١/١١٠.

﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾[2].

فآثر النظم أن يأتي بهذه الصيغة الدالة على الافتعال في هذين الموضعين دون الصيغة المجردة (اصبر) ؛ وذلك لأنّ المقام فيهما مقام حثّ على العبادة والمداومة عليها، دون إخلال بها أو تقصير، وفي ذلك ما فيه من المشقة على النفس، بهذا فإنّ صيغة (افتعل) أنسب لهذا المقام، وهو ما قاله الآلوسي في سورة طه: «﴿وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾» أي: وداوم عليها، فالصبر مجاز مرسل على المداومة، لأنّها لازم معناه، وفيه إشارة إلى أنّ العبادة في رعايتها حق الرعاية مشقة على النفس»[3].

وكذلك ما نراه في صيغة (انفعل) التي تدل على المطاوعة، قال الرضى: «هذا الباب موضوع للمطاوعة، وهي قبول الأثر، وذلك فيما يظهر للعيون، كالكسر والقطع والجذب أولى وأوفق، فلا يقال: علمتُهُ فانعلم ولا فهمتُهُ فانفهم»[4].

وتستعمل بكثرة في موقف البعث والقيامة، إبرازاً لما يدل على هذا الموقف من طواعية كلّ شيء لخالقه. كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾[5] وقوله: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾[6] وقوله:

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٥.

(٢) سورة طه، الآية: ١٣٢.

(٣) روح المعاني: ٤١٦/١٦.

(٤) شرح شافية ابن الحاجب: ١٠٨/١.

(٥) سورة الرحمن، الآية: ٣٧.

(٦) سورة الحاقة، الآية: ١٦.

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[1] وقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾[2] وقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[3]. فجميع الصيغ (انشقت، انفطرت، انكدرت) تشعرنا بهذا التسخير والطواعية الشديدة للأشياء «التي يتم بها الحدث تلقائيّاً أو على وجه التسخير، وكأنه ليس به حاجة إلى فاعل»[4].

وقد يستعمل التعبير القرآني بعض الأفعال ذات الأصل المشترك مترددة بين التجرد والزيادة مثل الفعل المزيد بالهمزة والتاء (اتقوا) في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[5]، ثم عدل عنه إلى أصله المجرد (قُوا) في موضع آخر قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[6].

وهذه الزيادة في الموضع الأول والتجرد في الموضع الثاني ترجع إلى أنّ السياق في الآية الأولى موجّه إلى الناس عامة ممن كفر بالله وأشرك به وارتاب فيما نزله على رسوله، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[7]، وهؤلاء الذين يرتابون في القرآن ينبغي لهم أن يذروا تلك

---

(١) سورة التكوير، الآية: ١-٢.
(٢) سورة الانفطار، الآية: ١-٢.
(٣) سورة الانشقاق، الآية: ١-٢.
(٤) الإعجاز البياني: ٢٤٣.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٤.
(٦) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٧) سورة البقرة، الآيتين: ٢٢-٢٣.

الريبة، ويؤمنوا بالله، وهو أمرٌ يحتاج إلى اجتهاد كبير منهم كي يصلوا إليه؛ لذلك آثر الأسلوب القرآني أن يأتي بالفعل (اتقوا) في هذا الموضع؛ لأنّ هذه الصيغة تدل في بعض معانيها كما يذكر الرضي على: «الاجتهاد والاضطراب في تحصيل أصل الفعل، فمعنى (كَسَبَ) أصاب، ومعنى (اكتسب) اجتهد في تحصيل الإصابة بأن زاولَ أسبابها؛ لهذا قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: اجتهدت في الخير أولاً فإنّه لا يضيع ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أي: لا تؤاخذ إلاّ بما اجتهدت في تحصيله وبالغت فيه من المعاصي»[1]. وأمّا السياق في الموضع الثاني فلم يحتاج إلى ذلك الاجتهاد؛ لأنّه موجه للمؤمنين فهؤلاء لا حاجة لهم إلى ذلك الجهد الذي يتطلبه الفريق الأول؛ لترك الريبة والنفاق، فناسب أن يأتي بالفعل المجرد؛ ليتفق في دلالته على عدم التكلف مع عدم احتياج هؤلاء المؤمنين لهذا الجهد الكبير للنجاة من النار[2].

ونجد التنويع بين صيغتي (أفعل) و(فعَّل) بتضعيف العين التي تدل على التكثير كما نراه في لفظي (أنزل) و(نزَّل) كما في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[3]، فجاء باللفظ المضاعف الدال على التكثير مع الكتاب، واللفظ المزيد بالهمزة مع التوراة والإنجيل، قال الزمخشري معللاً ذلك: «فإن قلت: لم قيل: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾ و﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾؟ قلت: لأنّ القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابات

---

(١) شرح الشافية: ١/١١٠.

(٢) ينظر: المناسبة: ٢٥١-٢٥٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣.

جملة»[1].

وقال الرازي: «في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2]، إنّما قال: ﴿نَزَّلْنَا﴾ على لفظ التنزيل دون الإنزال؛ لأنّ المراد النزول على سبيل التدريج، وذكر هذا اللفظ هو اللائق بهذا المكان؛ لأنّهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله ومخالفاً لما يكون من عند الناس لم ينزل هكذا نجوماً سورة بعد سورة على حسب النوازل ووقوع الحوادث وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر، من وجود ما يوجد منهم مفرقاً حيناً فحيناً، بحسب ما يظهر من الأحوال المتجددة والحاجات المختلفة، فإنّ الشاعر لا يظهر ديوان شعره دفعة والمترسل لا يظهر ديوان رسائله وخطبه دفعة، فلو أنزله الله تعالى لنزله على خلاف هذه العادة جملة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾[3]»[4].

وعلّق الراغب الأصفهاني على قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[6]

---

(١) الكشاف: ١/٣٣٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

(٤) مفاتيح الغيب: ٢/١٠٧-١٠٨.

(٥) سورة الدخان، الآية: ٣.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

فقال: «وإنّما خص لفظ الإنزال دون التنزيل، لما روى أن القرآن نزل دفعة واحدة إلى السماء الدنيا، ثم نزل نجماً منجماً»[1].

وهكذا نرى ما لبنية اللفظ في النظم القرآني من أثر فعّال في المعنى وصلة وثيقة بالسياق حيث يحرص على توظيف الطاقات الإيحائية لمدلول تلك البنية في المقام المناسب لها، مراعياً ما يتطلبه المقام ممّا تدل عليه بدقة بالغة[2].

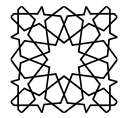

(١) مفردات ألفاظ القرآن (نزل): ٥٤٤.

(٢) ينظر: من الأعجاز اللغوي: ١٧٦-١٧٧.